دلالات التبسم في شعر المتنبي

–دراسة نقدية–

د. علي بن محسن بن أحمد مشعوف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية – كلية الفنون والعلوم الإنسانية– جامعة جازان، جازان– المملكة العربية السعودية.

The connotations of smiling in Al-Mutanabbi's poetry: a critical study

Dr. Ali Mouhsen Mashoof

Assistant Professor of Rhetoric and Criticism at the College of Arts and Humanities - Jazan University

المستخلص:

يعد التبسم من الظواهر اللافتة في شعر المتنبي، فهو ظاهرة إنسانية تداولية تستعمل للتعبير عن مشاعر وعواطف معينة، لكنها تختلف باختلاف المواقف، ومن هنا يأتي استعمال المتنبي (للتبسم) علامةً إشارية تهدف لتحقيق مدلول معين.

ولم يكن القاموس اللغوي لدى المتنبي محدودًا ضيقًا، بل كان على العكس من ذلك شديد الاتساع، لدرجة تشعر كل من قرأ ديوانه بالذهول والإعجاب؛ لكثرة ما يلاقيه من الألفاظ والمصطلحات الغريبة والشائعة على حد سواء في ثنايا أبياته وقصائده؛ وبالرغم من تلك الغزارة الهائلة لتلك الألفاظ والمصطلحات ومعانيها، فإن ظاهرة التكرار وكثرة الاستعمال لبعض تلك المصطلحات أمر لافت للقارئ المتمعن، وكان لمفردة (التبسم) نصيب من ذلك التكرار الذي لفت انتباهي للقيام بهذه الدراسة.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة التبسم بوصفه ظاهرة إنسانية في الشعر العربي، فهو يوظف توظيفًا فنيًّا ليكون علامة دالة على الرضا أو الغضب، والهدوء أو القلق، والخوف أو الاطمئنان، وغيرها من الأمور الدالة على تحقيق معان خاصة، فهو إذن علامة غير لغوية في الأصل، ثم يأتي اللفظ اللغوي ليعبر عنها، وليدل على أن هذا اللفظ ليس مقصودًا لذاته، ولكنه مؤشر على مدلول معين.

وقد توصل البحث إلى رصد تسعة أنواع من المدلولات يمكن ذكرها في الآتي: التبسم دالاً على: (الإعجاب والتيمن بالنصر)، و(الدلال والغنج)، و(الحلم والترفع والأنفة)، و(المداراة والخداع)، و(السخرية والتهكم)، و(الشجاعة في الحرب وعدم الاكتراث بالمخاطر)، و(النشاط والرضا والطرب لفعل المعروف)، و(رخاوة الدهر وطيب العيش ورغد الأيام)، و(التحمل، والصبر على المكاره والمشاق).

الكلمات المفتاحية: المتنبي، التبسم، النقد، العلامة، الضحك.

Abstract:

Smiling is one of the remarkable phenomena in Al-Mutanabbi's poetry, as it represents an indicator of a specific connotation in different contexts, smiling is a human and circulating phenomenon used to express certain feelings and emotions. These feelings and emotions differ depending on the situations. Accordingly, Al-Mutanabbi's use of (smiling) as an indicative sign aiming to achieve a specific connotation.

Al-Mutanabbi's linguistic dictionary was not limited and restricted; nevertheless, it was very extensive to the extent that everyone who reads his collection feels astonished and admired. Because of the many strange and common words and terms one encounters in his verses and poems and despite the enormous abundance of these words and terms and their meanings, the phenomenon of repetition and frequent use of some of these terms is notable to the careful reader. The word "smiling" had a share of such repetition, which drew my attention to carry out this study.

This research aims to study smiling as a human phenomenon in Arabic poetry. It is used artistically to be a sign indicating satisfaction or anger, calmness or anxiety, fear or reassurance, and other things indicating the achievement of special meanings. Therefore, it is a non-linguistic sign in origin, then, the linguistic expression comes to indicate that this expression is not intended for itself, but is an indication of a specific meaning.

The research identified nine types of these connotations that can be mentioned as follows: Smiling indicates: (admiration and hope for victory), (coquetry), (wisdom, arrogance and pride) (politeness and deception), (Sarcasm and mockery), (courage in war and indifference to dangers), (activity, satisfaction, and joy in doing good deeds), (the ease of time, good living, and comfortable days), and (endurance, and patience in the face of adversity and hardships.

Keywords: Al-Mutanabbi, smiling, criticism, sign, laughing.

المقدمة:

تربع أبو الطيب المتنبي على عرش الشاعرية منذ وقت مبكر من حياته، وهو غني عن التعريف؛ ولذلك ضربت عنه الذكر صفحًا، واستعضت عن ذلك بالحديث عن شيء من الفلسفة الشعرية التي منها توظيفه للفظ (التبسم) بعيدًا عن ظاهر المعنى الموضوع له في اللغة. فشعر المتنبي كان -ولا يزال- مثارًا للتساؤلات والخلافات السطحية والعميقة بين النقاد والدارسين، القدماء منهم والمحدثين؛ وذلك لما اتسَّم به أدبه من كثافة شعرية عبر استعمال الأساليب المعتمدة على المفارقة، وتوظيف الخيال الأدبي، والمبالغة، بالإضافة إلى الحكمة، والكلمات الجامعة التي جعلت لشعره طابعا خاصًّا.

موضوع البحث:

يعد التبسم من الظواهر الموظفة توظيفًا فنيًّا في الشعر عامة، وعند المتنبي خاصة، وذلك على مستويين: الأول: أن يستعمل التبسم في معناه الأصلي في اللغة، وهو ما تكشف عنه المعاني المعجمية. والثاني: حين يذكر التبسم بوصفه علامة على مدلول آخر غير الظاهر، فإنه يصبح خارجًا عن معناه اللغوي الأصلي، وعلامةً على معنى خاص بحسب السياق، وهذا يحتاج إلى دراسة تبحث عن دلالات الظاهرة الإنسانية ودورها الإشاري في النص، "فإذا كانت النصوص الشعرية تبوح بأشياء وتقولها صراحة، فإنها تؤثر السكوت عن أشياء أخرى مرَّاتٍ عديدة، ولا ترغب في التعبير عنها باللفظ الصريح، ولكن عبر الفلتات والعلامات الموحية دون اللجوء إلى معنى محدد ومعين"(١).

وإن كانت اللغة حمالة أوجه كما يقال، فإن لغة المتنبي في شعره حازت -في نظري- النصيب الأوفر من هذه الصفة التي اتصفت بها اللغة بشكل عام، وكان ذلك من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى اختلاف الآراء بين النقاد حول المعاني التي طرقها المتنبي في شعره، وكانت كلمة (التبسم) واحدةً من بين تلك الألفاظ التي استثارت فضولي، مما دفعني إلى إعادة قراءة ديوان المتنبي؛ وتتبع تلك اللفظة في جميع شعره.

(١) حميد سمير، النص وظله الشاعر وقرينه في خطاب المتنبي الشعري، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، ٢٠١٣م، صـ٣٨.

مشكلة البحث وأهدافه:

يتناول هذا البحث ظاهرة التبسم بوصفها علامة سيميائية دالة في شعر المتنبي، ولذلك فهو يبحث عن المدلولات التي يحققها دالُّ (التبسم) في النص الأدبي في شعر المتنبي، وعن الدور الإشاري الذي يؤديه في الشعر عن طريق المشاكلة أو غيرها من الظواهر التعبيرية، ويهتم برصد هذه المدلولات عبر الإحصاء لينتهي إلى نتيجة توضح الوظيفة الإشارية التي يقوم بها التبسم في النص الأدبي.

ومن خلال الاستقراء والإحصاء وجدت أن مادة (ب-س-م) وردت لدى المتنبي في ديوانه في سبعة وعشرين بيتًا، واقتصر هذا الإحصاء على ما كان يعود أصله لمادة (ب-س-م)، والسؤال الذي يطرحه البحث هو: هل جاء لفظ التبسم على معنًى واحد في كل تلك الأبيات، وهل ورد على معناه الظاهر في كل تلك المواطن؟

ويتجلى الهدف الرئيس من هذا البحث في رصد المدلولات التي دل عليها لفظ التبسم في شعر المتنبي، سواء ذلك التبسم الذي جاء على حقيقته وعني به كشر الأسنان وإرادة السرور الحقيقي، أو أن التبسم انصرف إلى معنى آخر يحدده السياق.

منهج الدراسة:

وقع الاختيار في هذه الدراسة النقدية على السيميائية أداة للنظر والبحث، لأن السيميائية منفتحةٌ على دراسة العلامات من عدة جهات: منها علاقة العلامة بالمجتمع التي اهتم بها دو سوسور(١)، ومنها علاقة العلامات المنطقية بعضها ببعض داخل البناء اللغوي ثم دورها التأويلي كما عند بيرس(٢).

(١) ينظر: فرديناند دوسوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، بغداد، دار آفاق عربية- ١٩٨٥م، ص ٣٤.

(٢) ينظر: حنون مبارك، دروس في السيميائيات، الطبعة الأولى، الدار البيضاء- المغرب، دار توبقال للنشر، ١٩٨٧م، ص٧٧.

وكان للسيميائية تسميات عدة عند الباحثين العرب: مثل (الدلائلية) كما عند عبد القادر فيدوح[١]، و(العلاماتية) كما عند منذر عياشي[٢]، و(السيميائية) كما عند سعيد بنكراد[٣] وعبد الملك مرتاض[٤] وغيرهما.

والأقرب إلى طبيعة هذا البحث هو الاهتمام بالعلامة في إطار دورها الاجتماعي الذي يتحدد من السياقات التداولية، بحسب تصورات دو سوسور؛ فكل دال لغوي هو علامة على مجموعة من العلامات التي تتحدد وفق إطار إشاري؛ وليس للدال قيمة دلالية في نفسه حتى يدخل في سياق خاص يفسره.

خطة البحث:

قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة كما يلي:

مقدمة، تتضمن التعريف بالموضوع، وسؤال الدراسة، والمنهج، وخطة البحث.

المبحث الأول: الدلالة اللغوية للتبسم في شعر المتنبي. وهو مبحث يهتم بالوحدات اللغوية التي تحدد معنى التبسم في النص بناء على الاستعمالات الأسلوبية والقراءة التأويلية لها عبر التطرق إلى مدلولات البنية في ضوء المعنى اللغوي، فهذا المعنى ينشأ من الترتيب اللغوي الخاص المحكوم بنظام معجمي وصرفي وتركيبي معين ليؤشر على دلالة معينة.

المبحث الثاني: مدلولات التبسم في شعر المتنبي. وهو يبحث في المؤشرات الخفية التي يدل عليها التبسم بوصفه علامة دالة على معنى توحي به الألفاظ عبر الاستدعاء الرمزي بين الدال والمدلول في سياق شعري يفسر العلامة ويحيل إلى معناها الخاص.

ثم خاتمة تتضمن أهم النتائج العلمية التي خلص إليها البحث.

***

(١) ينظر: عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري، مطبعة ديوان المطبوعات الجامعية- وهران الجزائر، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، الدار البيضاء- المغرب، طبعة المركز الثقافي العربي- ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر: سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، الطبعة الثانية، اللاذقية، سوريا، دار الحوار، ٢٠٠٥م.

(٤) ينظر: عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات، مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها -دراسة-، من منشورات اتحاد الكتاب العرب- ١٩٩٨م.

المبحث الأول: الدلالات اللغوية للتبسم في شعر المتنبي

تعددت اتجاهات السيميائية بين دو سوسور وبيرس وإمبرتو إيكو وجريماص وغيرهم، ففي حين اهتم دو سوسور بدراسة العلاقة بين الدال والمدلول في إطار السياق، -ولذلك فإن السيميولوجيا عنده تُعنى بدراسة حياة العلامات في المجتمع(١)، نجد إمبرتو إيكو يطلق اسم علامة على "أشياء تعتمد على روابط دلالية حتى وإن كانت بنيتها الداخلية ليست من طبيعة العلامات اللسانية"(٢)، ونجد بيرس يؤسس لسيميوطيقا منطقية باعتبار أن المنطق بمفهومه الواسع هو "تسمية أخرى للسيمياء"(٣)، وعنده تتناول السيميوطيقا العالم كله بوصفه شبكة من العلامات.

أما لفظ (التبسم) فهو يدل -من حيث المعنى المعجمي- على "أول الضَّحِك، وهو ما لا صَوتَ له"(٤)، وقال بعضهم: "هو ما لا يكون مسموعًا له ولجيرانه"(٥). وجاء في لسان العرب: "بَسَمَ يَبْسم بَسْمًا إذا فَتَح شَفَتَيه كالمُكاشِر"(٦)، والكَشْر هو التبسم، يقال: "كَشرَ البعير عن نابه، أي كشف عنها...يقال: كَشَرَ الرجلُ، وانْكَلَّ، وافْتَرَّ، وابتسم، كل ذلك تبدو منه الأسنان"(٧).

(١) ينظر: فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، صـ ٣٤.

(٢) إمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة سعيد بنكراد، ط ٢، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٠م، صـ١٩١.

(٣) دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، ط١، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، صـ٣٠.

(٤) محمد بن عمر الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، المديني، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ط١، جدة، ط/دار المدني بجدة، ١٩٨٦م، ١/ ١٦٠.

(٥) التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، ط١، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، صـ٥١. وقد رتب العلماء الضحك إلى مراتب، "فالتَبَسُّمُ أوَّل مراتب الضحك، ثم الإهْلاسُ وهو إخْفَاؤُه...ثم الافْتِرَارُ والانْكِلالُ وهما: الضَّحِكُ الحسَن...ثُم الكَتْكَتَةُ أَشَدُّ منهما، ثم القَهْقَهَةُ، ثم القَرْقَرَةُ، ثم الكَرْكَرَةُ، ثم الاسْتِغْرَابُ، ثُم الطَّخْطخَةُ وهي أن يقول: طِيخ طِيخ، ثُمَّ الإهْزَاقُ والزَّهْزَقَةُ وهي أن يذهب الضَّحِكُ به كلَّ مذهب". أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، صـ ٨٩.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ط٣، بيروت، طبعة دار صادر - ١٤١٤هـ، مادة (بسم)، ١٢/ ٥٠.

(٧) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت- طبعة دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، مادة (كشر)، ٢/ ٨٠٦.

والكشر: هو "بُدُوُّ الْأَسْنَان عِنْد التَّبَسُّم"(١). وهذا يدل على أن ظهور الأسنان هو الأصل عند التبسم، حيث "يتقلّص - أي يتجمع - جانبا الفم، وتنفتح الشفتان قليلًا محيطتيْنِ بالأسنان"(٢). وجاء في القاموس المحيط: "بَسَمَ يَبْسُمُ بَسْمًا، وابْتَسَمَ وَتَبَسَّمَ: وهو أقل الضحك وأحسنه، فهو باسمٌ ومبسام وبسّام، والمبسِمُ كمنزل: الثغر"(٣).

فالأصل في التبسم ظهور الأسنان معه، كما قال الشاعر:

فَقُمْتُ واللَّيلُ يَجْلُوهُ الصَّبَاحُ كَمَا ... جَلَا التَّبَسّمُ عنْ غُرِّ الثّنِيَّاتِ(٤)

فـ"كلمة ابتسم كلمة يسيرة تعني -كما نعلم- تفتح النفس وخروج الإنسان من وحشته وبدء اتصاله بالآخرين"(٥).

والتبسم يكون إشارةً إلى التبسط حينًا، وهنا يكون دالا على الألفة والمحبة فيكون حسَن الظهور، ولذلك رُوي عن جرير -رضي الله عنه- قال:"مَا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُنْذُ أَسلَمْتُ إِلَّا تَبَسَّم فِي وَجْهِي"(٦).

كما يدل التبسم أحيانًا أخرى على منافاة الأدب، وهنا يكون التبسم واجب الخفاء، ولذلك قال كثير:

تَرَى القَوْمَ يُخْفُونَ التَّبَسُّمَ عندَه ... ويُنْذِرُهُمْ عُورُ الكَلامِ نَذِيرُهَا(٧)

(١)محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١م، ١٤/٤٥.

(٢) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب ٢٠١٠م، ٤ / ١٩١٣.

(٣) مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط٢، بيروت – لبنان- دار الكتب العلمية، مادة (ب س م) صـ ١٠٩٢.

(٤) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية- بيروت، ١٤١٩هـ، صـ٢٩٢.

(٥) مصطفى ناصف، عن الصيغة الإنسانية للدلالة، مجلة فصول- القاهرة، العدد الثاني-المجلد السادس- يناير فبراير مارس ١٩٨٦م، بعنوان (تراثنا النقدي) الجزء الثاني، صـ٩٥.

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، ط١، الرياض، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، صـ١٣٢.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت- لبنان، طبعة دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ، ٣/ ١٦٤.

ومما يدل على أن التبسم حركة تحمل في ذاتها معاني تواصلية أخرى، ما ورد عن ابنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ}(١)، قَالَ: الصَّغِيرَةُ: التَّبَسُّمُ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ"(٢).

كما أن التبسم في أصل معناه اللغوي يختلف عن دلالة التبسم عند إضافة معنى جديد إليه(٣)، فإضافة كلمات مثل: (بارد) (صادق) (حزين) إلى غير ذلك من مفردات قبل لفظ (التبسم) يحدد المعنى المراد من التبسم في سياقه الخاص، كما ورد في كتاب:(أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم):

جاءَ بِوَجْهِ باردِ التَّبَسُّمِ ... مُفْتَضِحٍ بِما جَنَى مُذَمَّمِ(٤)

أما عند المتنبي فكثيرًا ما جاء استعمال مفردات التبسم للدلالة على أصل المعنى اللغوي، وهو ظهور الأسنان عند التبسم، كما في قوله موظفًا اسم المكان (المبسم) للدلالة على الثغر الجميل المنضود:

فَتَاةٌ تَسَاوَى عِقْدُهَا وَكَلامُها ومَبْسَمُها الدُرِّيُّ في الحُسْنِ والنَّظْمِ

أي: "تشابهت منها ثلاثة أشياء وهي: عقدها المنتظم من الدر، وكلامها الشبيه الدر، وثغرها الذي تبسمت عنه كالدر، فهي مشابهته في حسنها ونظامها"(٥).

وقوله أيضًا:

ويَبْسِمْنَ عَن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَه كَأَنَّ التَّرَاقي وُشِّحَتْ بِالْمَباسِمِ(٦)

---

(١) سورة الكهف:٤٩.

(٢) أبو داود السجستاني، كتاب الزهد، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس، ط١، حلوان- مصر، طبعة دار المشكاة للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٢٩٦.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ٣/ ١٦٤.

(٤) أبو محمد بن يحيى الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، القاهرة، مطبعة الصاوي، ١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م، ص ٢٥٤.

(٥) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد)، المعري، أبو العلاء، تحقيق ودراسة عبد المجيد دياب، ط٢، القاهرة، طبعة دار المعارف، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، ١/ ٢٨٣.

(٦) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، بيروت -لبنان، طبعة دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م، ٤/ ٢٣٧.